

الافتتاحية

"الإمام عبد الحميد الفراهي (1863-1930 م) المولود في قرية "فريها" (إحدى قرى محافظة أعظم كره) كان آية من آيات الله، رزق الله قلبه وعقله مواهب ممتازة فقد جمع في شخصيته من الصفات والبراعات ما يندر وجودها في رجل واحد. كان نموذجاً أفضل للجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، نموذجاً افتقد نظيره في عصره دع أن يكون في عصرنا، وقد أعاد إلى ذاكرتنا السلف الزكي ببساطته، وقناعاته، وإخلاصه لله، وتقواه، وشغفه بالطاعة، وانعزاله للشهرة. وإذا نظرنا إلى تضلعه في العلوم، وتفوقه في الاكتشافات العلمية فما نجد عالماً تناول مثل هذه المواضيع المتنوعة بهذا القدر من سعة الاطلاع، وعلو الكعب في الفن، ودقة النظر والاجتهاد. وإن كانت مشكلة للفلسفة أو بدعة الخيال عن الآداب العالية، أو قضية نحوية صعبة أو تدقيق النكت لفن البلاغة، سواء ناقش تحريفات التوراة والإنجيل أو تحدث عن دقائق اللغة العبرية فقد كانت كلماته موجزة حلوة، معالجاته ودراساته متينة ومترنة ودالة على علو الفكر والنظر، مقتصدة في المدح والغربال، بعيدة عن الإفراط والتفريط، أساليبه بسيطة مؤثرة يرسخ في القلوب ما يودّ بيانه. كانت مباحثه تحوي معاني جديدة لا تمل القارئ ولا يشبع منها الباحث.

ولو أنّ الإمام الفراهي كان متبحراً في العلوم، وجليلاً شأنه لغاية أدى حق موضوع أراد الحديث عنه، وعرض لآئٍ ودرراً للعلم والحكمة كأن هذا الموضوع اختصاصه ووقف حياته عليه، ولكن الواقع أنّ مجال اختصاصه كان القرآن الكريم حيث نشهد دقة نظره، وعمق فكره، وروعة بحثه كلّ في أوجها. فقد كان يحبّ كتاب الله الذي كان مركزاً لتفكيره، ومحوراً لكافة أشغاله وأفكاره، وقد وقف حياته كلها

على التدبر والتفكر في هذا الكتاب، وجعله هدف حياته؛ وكلّ علم وفن مهر فيه، وكلّ موضوع تحدث عنه لم يرد به سوى أن يمهد به السبيل إلى فهم القرآن، ويسهل به الوصول إلى معارفه وحكمه، فكان كل هذا لكي يسهل الطريق إلى هذا الهدف الأصلي ولم يرد به المهارة في هذه العلوم والفنون والموضوعات ويكأنها كانت وسيلة للوصول إلى هدف سامٍ وغاية عالية فلم يسع سوى له ولم يتقدم سوى إليه، وفوق ذلك أنّ النشاط وتوضيحية الذات والإخلاص الذي قدّمه لنيل هذا الهدف لا يمكن توفيقها إلا لخادم متفاني لكتاب الله العزيز.

وإن نحلل نشأة شخصية الإمام الفراهي يظهر لنا جلياً أنه كان مختلفاً عن لداته منذ صغره، وكان يمتلك موهبة متميزة ثم أنعم الله عليه بأن وهبه فرصاً تتوالى لتنشئة مواهبه الفطرية وصقلها صقلاً مثاليّاً؛ فقد حفظ القرآن الكريم وكان ابن عشر سنوات، ولم يتجاوز إحدى عشرة سنة من عمره إذ أصبح صاحب ذوق للغة الفارسية وآدابها. ولما أكمل من عمره عشرين سنة أصبح فارغاً من نيل العربية وآدابها والعلوم الإسلامية. والأساتذة الكبار الذين تلقى عليهم هذه العلوم أبرزهم ابن عمته شيخ الإسلام شبلي النعماني الذي قد لعب دوراً ريادياً في إبراز مواهبه الخفية، وأطلعه بالعلوم العالية، ثم تأتي أسماء الشيخ محمد فاروق التشرىاكوتي، والشيخ عبد الحي الفرنغي محلي، والشيخ فيض الحسن السهارنفوري الذين كانوا من جلة علماء زمانهم.

ولكنما خصّ له الرب الجليل من الخدمة المتميزة لم يكفها هذا القدر من الاستعداد فقد وجب لخدمة القرآن الكريم وعلومه في عصرنا الحاضر أن يمهر في العلوم الجديدة والفلسفة والاتجاهات المعاصرة بدلاً من العثور عليها. والواقع أن الغرب قد بلغوا أوجهم في مجال العلم والتحقيق خلال القرون الماضية فلم يمكن لعالم أن يفرس الدهر بدون معرفته، ولا أن يعامل مع المعاصرين غير إمامه بأساليبهم ومستواهم العلمي والعقلي. ولقد ازدادت رغبة الغرب في مختلف

موضوعات الإسلام وعلومه في القرون السالفة لاسيما القرن التاسع عشر الميلادي نظراً لفوائدهم ومصالحهم الاستعمارية، وكلما بلغ القرن التاسع عشر نهايته قد سمع دويّ تحقيقاتهم هذه عن العلوم الإسلامية في كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي. ولكن هذه التحقيقات كان معظمها عدائياً ولم تهدف سوى أن تضعّف المسلمين فكراً واتجاهاً، ولقد استظلّوا في ظل المصطلحات الرائعة للعلم والتحقيق، وعمّموا الكذب والمكر، وبعد أن انهزم المسلمون على الجبهة السياسية والعسكرية أصبح جيلهم الجديد الذي قد نشأ على المنهاج الدراسي الغربي أصبح عرضة لهجومهم الفكري. وكانت حمايتهم عنه واجباً دينياً وملياً، ولكن لم يكن بدّ من الإمام بها قبل أن يقوم أحدٌ لكشف القناع عنها ----- ولقد وفق الله جلّ جلاله إمامنا الفراهي لأن يقوم بأداء هذا الواجب الملي العظيم.

فلما برع الإمام الفراهي في العلوم الإسلامية توجّه نحو العلوم الجديدة. ولو أن هذه المرحلة من حياته تحتوي على مدة عشر سنوات من 1985م إلى 1995م ولكن الفترة من 1991م إلى 1995م تعتبر مهمة جداً حينما أقام الفراهي بعلي كره لهذا الهدف. فتحتل هذه الفترة أهمية كبرى في حياته وذلك لأنه لما وصل إلى علي كره قد بلغ من علمه وعقله درجة لم يخف عليه أن يتأثر بآثار علوم الغرب وحضارتها السلبية. وبصفتها مركزاً لحركة متنامية كانت علي كره محلاً لحماس ونشاط الحياة فكان يريدها الشباب المؤهلون والمتحمسون من كل أنحاء البلاد، وكان الكل يطوي بين جنبه أمنية ليصبح شيئاً مذكوراً، أو ليفوز بأمر عظيم، أو لينجز ما يبهت الآخرين. وكان الكل منقطعاً إلى ما تمنى، ومشغولاً بما اهتم به، فكانت علي كره في تلك الفترة تبدو مدينة للأحلام حيث يتحول المستبعد إلى الممكن. فتخيّل تلك الجلسة العلمية التي كان يرأسها السير سيد ذاته، ويجلس عن يمينه العلامة شبلي، ويجلس عن شماله الماهر في فلسفة الغرب الفلسفي المحقق الشاب البروفيسور آرنولد، ويصطف له العلماء والحكماء الهنود فتخيّل

تلك البيئة المشرفة على العلم والحكمة، فلو وفق لهذه البيئة شاب مثقف كمثل الإمام الفراهي الذي قد اعترف بفضله ومهارته في العلوم الشرقية السير سيد ذاته فلم يعفه عن تعلم اللغة العربية والفارسية فحسب بل طلب منه أن ينقل كتابين إلى الفارسية قرّهما في كتب المنهاج الدراسي في إمكانك أن تقدر نجاحه في الغاية التي توخّاها لرحلته إلى علي كره.

وعلى هذا فتحتل علي كره مكانًا عاليًا في رحلة الفراهي العلمية والعقلية؛ ولم يعرف بها العلوم الجديدة فحسب بل تعرف في رحابها على الأسلوب الجديد والتحقيق الحديث. مهر بها في اللغة الإنجليزية، وتذوق الفلسفة الجديدة، وتعلّم اللغة العبرية. وقام بهذا كله حينما كانت هذه العلوم والفنون محرمة على علماء الإسلام في الهند. وما لعبته هذه العناصر من الدور في تكوين شخصية الفراهي العلمية لا يخفى على العلماء والباحثين. وكذا لا يخفى عليهم ما قامت به علي كره أصلًا من تلبية ما احتيج إليها من الأسباب لإثارة الحركة العلمية والفكرية والإصلاحية التي سعدت بها شخصية الإمام الفراهي، ولما يقيم أحدًا باستعراض تأثير علي كره في شخصية الفراهي. وعلى كل حال لا نجد أحدًا يضاهي شخصية الإمام الفراهي الجامعة بين القديم والجديد من العلوم. ولقد قام طلاب علي كره بما قاموا به من الإنجازات العلمية العظيمة في مجال العلوم القديمة، وكان لهم نصيب وافر في تنشئة مسلمي شبه القارة العلمية والفكرية. ولكن هذا من الواقع أن طالبًا من طلاب علي كره لم يحتل منصبًا علميًا عظيمًا في مجال العلوم الإسلامية مما ناله الإمام الفراهي.

وبدأ الإمام الفراهي يدرس القرآن ويتدبر آياته منذ أن التحق بكلية علي كره، ثم انقطع إليه، وجعله مقصد حياته. فوقف حياته الباقية الممتدة لأربعين سنة على القرآن الكريم، بحيث جعله مركزًا لكافة أنشطته ومساعيه، وحاول جهده أن يخرج منه لآلئ معارفه وحكمه، ويتدبر آياته، ويفهم معانيه، فقبل الله شغفه

بالقرآن، وميله إليه، وتفكره فيه، وأسبغ عليه نعمه الخاصة، ومهد له السبيل إلى فهم كتابه العزيز، ووفقه لاكتشاف وتدوين الأصول التي تهدي إلى فهم هذا الكتاب المعجز، وقد ترأسها فلسفته لنظام القرآن التي قال بها المتقدمون وألفوا الكتب والرسائل فيها. وقد اعترف الإمام الفراهي بفضل تقدمهم في هذا المجال في مقدمة تفسيره، ولكنه زاد هذه الفلسفة تأييداً وتعريضاً، وجعل هذا المبني صرحاً شامخاً؛ جعل هذه الفكرة فناً مستقلاً، وأثبتها بكتاب من عنده و"ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ".

لم يسبق الإمام الفراهي أحدٌ قدّم القرآن الكريم ككتاب منظم ترتبط كل آياته بما قبلها وما بعدها، وتنتظم كل سورة بسابقتها ولاحقتها. فلم يكن الفراهي يقول بالمناسبة في القرآن كمن سبقه من المفسرين بل كان يوسّع في معنى النظم مما يعني أنّ القرآن كتاب منظم في تراكيبه، ومعانيه، وموضوعاته. وكما أثبت الفراهي هذه الحقيقة بدلائل عقلية ونقلية قوية جداً فكذلك عالجهما في تفسير مختلف السور، فوضع لكل سورة عموداً (موضوعاً مركزيًا)، وأخضع له آياتها المنظمة بحيث لو نزعنا منها وإن آية منها لاحتل نظام السورة كلها، وكذا بين ربط مختلف سور القرآن بسابقتها ولاحقتها كما أثبت أنّ النظم جزء من الكلام، وإن أغمضنا عنه فالتنا جزء مهم من معناه. وهكذا إن التركيب شيء زائد على المعنى لا يوجد في أجزائه المتفرقة -- وإن حرم أحد فهم النظام فهذا يعني أنه فاتته حقيقة كبرى للكلام.

فيرى الفراهي أنّ نظم القرآن هو المفتاح الرائد لفهمه، ولا يمكن الوصول إلى معارفه وحكمه إلا به. والإعراض عنه قد تسبّب في وجود الاختلافات الكبيرة في تأويل آياته وسوره، فإن معظم اختلافات التأويل ينتجها الإغماض عن نظم القرآن. فلو ظهر لهم نظم الكلام، واتضح لهم عمود السورة لما وقع اختلاف في التأويل واجتمع الكل تحت راية واحدة، ولارتفع صوت واحد من أفواه الكل. وفي جانب آخر وجدت من جرائه أسبابٌ عديدةٌ لاختلاف الأمة وتفرقها وعداوتها،

فعسى أن تكون العداوة التي قد عمّت المسلمين نتيجة أنه لما أغمضنا أعيننا عن نظم القرآن أغمضنا عن جزء مهم من القرآن فالسبيل إلى النجاة من هذه المشاكل هو أن نتمسك بنظم القرآن بشدة.

لقد قرأ الفراهي التاريخ بإمعان، وحلّل بدقة أسباب وعلل تقدّم المسلمين وتخلّفهم، وفوق ذلك أن الله قد وهبه، لرغبته في القرآن وتدبره المتواصل، وهبه الله تعالى بصيرة خاصة ولذا قد وصل الإمام الفراهي إلى أنّ الحل الوحيد لإنقاذ المسلمين من هذا الذل والهوان أن يرجع المسلمون إلى أصلهم الأول المتين، ولا يشوبهم جانب من العصبية والبغضاء. ولهذا الهدف المبارك وضع الإمام الفراهي مشروعاً لحركة عظيمة للفكر والعلم والإصلاح ثم رسم خطة شاملة لهذا المشروع. لم يكن هذا مشروعاً فكرياً وعلمياً فحسب بل كان محاولة عظيمة مثيرة لإصلاح الأمة، وكانت هذه الحركة مركبة من ثلاثة مكونات لها قيمتها وأهميتها الخاصة بها.

وفي هذا الصدد أول عمل وأهمّه كان يريد الفراهي إنجازَه هو أن يؤلف تفسيراً لكتاب الله في ضوء الأصول والمبادئ التي وقّعه الله لاكتشافها وتدوينها، فإن أصل معظم مساوئ المسلمين هو ابتعادهم عن القرآن، وضعف علاقتهم به. فوجب عليهم أن يهدوا إلى صحيح فهم القرآن، وأن يحاولوا لحل مشاكل هذا السبيل، ولقد وضع نظم القرآن أصلاً لهذا التفسير لا يمكن بدونه الوصول إلى صحيح معنى القرآن كما يرى. ولو أنه لم يمهل أن يؤلف تفسيراً كاملاً على منهجه الخاص، ولكنه كتب تفسير بعض سورته فأحقّ به فلسفته هذه، علاوة على ذلك كتاباته الأخرى تكفي لإثبات حقيقة هذا المنهج وأهميته في فهم معنى القرآن الصحيح. والآن وقد نشر تفسير "تدبر قرآن" (بالتردوية) قد ظهر للعالم أنموذج جميل لهذا المنهج العلمي لاسيما نظم القرآن الكريم.

والمكون الثاني لهذه الحركة العلمية والإصلاحية هو تطهير العلوم وتشكيلها من جديد فقد بلغت بصيرته الموهوبة أنّ السبب الكبير لزوال الأمة الخلقية والفكرية

تلك العناصر الحضارية غير الإسلامية التي قد تسَلَّلت إلى تيارات المسلمين الفكرية عبر عهودهم المختلفة فلقد كانت هذه العناصر غير الإسلامية المتسللة في الفكر الإسلامي مسؤولة عن العديد من القضايا والنظريات التي كانت الملة الإسلامية تعانيها. كانت هذه العملية تجري منذ زمان، ولقد اختلطت هذه العناصر بالفكر الإسلامي عبر عهودها المختلفة بحيث أنها يصعب تمييزها، وكانت مضرّة للغاية بالجسد الملي، ولن يمكن لوضع دائم مستقل لإصلاح الأحوال أن يبرز إلى حيز الوجود قبل النجاة من هذه العناصر. فقد كان من الضروري أن يبني الفكر الإسلامي من جديد على أسسه الصحيحة، وأن نرفع هذا الصرح الفكري على أساس من القرآن خالص. كان هذا مشروعاً مهماً في الواقع، والحقيقة أنه كان بحاجة إلى العديد من المجامع بجانب الأسباب المناسبة لها فلو لم يجد الإمام الفراهي أن يكمل هذا المشروع ولكنه قد أتمّ العديد من الأمور الأساسية المتعلقة به التي أُلقت ضوءاً فائضاً على مختلف جوانب هذا المشروع. فالكتب مثل "جمهرة البلاغة" و"مفردات القرآن" و"في ملكوت الله" و"القائد إلى عيون العقائد" التي قد تم طبعها كانت مثل خطوات متقدمة ناجحة في هذا الاتجاه، ويمكن بها أن نقدر شيئاً هذا المشروع وأهميته الكبرى في منظور تشكيل العلوم الإسلامية الجديد، وعلاوة على ذلك أنه خلف كتباً عديدة غير تامة في مختلف موضوعات هذا المشروع يمكن بها تقدير مدى سعة مشروعه في هذا الشأن. وكم كان هذا المشروع مهماً لديه بشأن إصلاح الأمة. وما نشهد اليوم من ضجيج وغوغاء عن تطهير وتشكيل العلوم على الأسس الإسلامية في مختلف جوانب الحياة قد شعر الإمام الفراهي بالحاجة الشديدة إليه قبل اليوم بمئة سنة ولا شك في أنه كان أول عالم مسلم شعر بشدة الحاجة إلى تحرير المجتمع الإسلامي من السلطة الفكرية غير الإسلامية على هذا المستوى وبهذا الاتجاه، وقام بقدر ملموس من الأعمال الجوهرية في هذا الصدد. هذا دليل قوي على بصيرته ونبوغه، والآن نحن في حاجة إلى تقدير إنجازات الفراهي في هذا الأمر، وأن نلفت الأنظار إلى إتمام ما تركه غير تام.

والجزء الثالث النهائي لهذه الحركة الثورية كان هو إصلاح المنهج الدراسي السائد في مدارس الهند، ووضعه على الخطوط الجديدة. فقد حاول الإمام أصلاً وضع المنهاج الدراسي الديني بحيث أن لا تمس الأصول، ولا تقوم الفروع مقامها، وهذا يعني بصراحة أن يوضع القرآن موضع الأصل في هذه الخطة التعليمية المقترحة وأن تتبع جميع العلوم الأخرى لهذا الأصل. وقد كان من حسن حظ مدرسة الإصلاح أن الإمام الفراهي قد اختارها لتجسيد فكرته هذه. تأسست هذه المدرسة في 1908م تحت إشراف حركة إصلاحية تسمى "أنجمن إصلاح المسلمين". أقيمت هذه الحركة لإصلاح مسلمي هذه الديار الديني والاجتماعي، وكان الفراهي منتسباً إلى هذه الحركة منذ يوم تأسيسها ثم جعل مديرها في 1916م، وأدى هذه المسؤولية لسنوات وهو مقيم في حيدرآباد. ولكنه أخيراً استقال عنها في 1919م، وانقطع لهذه المدرسة فبقي مديرها للعام 1930م عام وفاته. فقام الإمام الفراهي بإعداد خططها التعليمية، وعيّن أهدافها ومراميها، ووضع منهاجها التعليمي، ودرّب مختاراً من أساتذتها ليدرّسوا العلوم والفنون حسب رضاه، وعلمهم طريق تدبر القرآن والتفكير فيه. فقد أنفق عقداً من عمره العزيز لتطوير هذه المدرسة، ووضعها في قالب فكرته الخاصة، فالمدرسة اليوم نموذج حي لأفكاره التعليمية. ولندرس منهاجها الدراسي والتربوي لفهم سياسة الإمام التعليمية فهماً شاملاً، لأن هذه المدرسة بدء لحركة إصلاح المنهاج الدراسي هذه ونموذج جميل لها.

ونودّ أن نوجز فيما يلي ما أراد الإمام الفراهي من الأهداف والمرامي لمنهاج هذه المدرسة التعليمي والتربوي، وهذا لكي نقدّر أسلوب ومستوى تطورها. فقد أراد الفراهي أن منهاجها التعليمي يدرس القرآن فيه بالبحث والتحقيق، ثم يركز على الحديث والفقه، ويخرج ما لا يحتاج إليه من كتب المنطق والفلسفة والكلام، ويملاً هذا الفراغ بتدريس الأدب العربي، ويركز على المواهب والجدارات لا الكتب المقررة المعدودة ما عدا القرآن ومتون الحديث، وأن يكون تدريس الحديث بعيداً

عن العصبية، ولا يدرس في الفقه سوى الفقه الإسلامي لتتسع عقول الطلاب ولا تضيق قلوبهم، وأن يعلم النحو العربي عملاً. وأما الفنون فلنضع أمامنا أمهات الفن، وندرس أصوله مع أي فن، ويفضل أسلوب المحاضرات حين التدريس، وتدرس اللغة الإنجليزية قدرما يحتاج إليها، وإذا أتاحت الفرصة مزيداً فليعلم الطلاب الصناعات لكسب المعاش. وتكون فترة التعليم قليلة، ويكون التعليم رخيصاً. ينبغي أن تكون هذه المدرسة مركزاً لمختلف فرق ومذاهب أهل السنة والجماعة، فيتعايش هنا الحنفي والسلفي، ويدرس الندوي والديوبندي معاً، وليكونوا متحدّين على الرغم من اختلافهم في الجزئيات، وليمحووا اختلافات المسلمين اللايعنية المتواجدة بينهم. لتدار هذه المدرسة بتبرعات المسلمين فقط، وأن تبعد عن أي أثر حكومي، لأن الحرية والمحافظة على الروح الدينية هما أصلان لهذه المدرسة. وعلاوة على تلك فقد كانت القناعة والبساطة من ميزات هذه المدرسة. والحمد لله أن هذه المدرسة تواظب على ما وضعه الإمام الفراهي من منهاجها الدراسي متصدية لكافة المشاكل وموطأة جميع العراقيين.... هذه هي الخطة التي وضعها الإمام الفراهي لنهضة المسلمين الدينية والفكرية والعملية، ولقد وفق أن يعمل عليها قدر ما استطاع. وأن هذه الحركة الإصلاحية قد تركت آثارها البعيدة في كافة أنحاء شبه القارة، ولكنها تحتاج إلى أن نعمل عليها بصورة منتظمة لكي تثمر هذه الشجرة التي غرسها الإمام الفراهي، ولقد آتت أكلها ولو قليلاً طوال عمرها الممتد لثلاثين سنة أو أكثر.¹

بدأنا إصدار هذا العدد الخاص لهذا الهدف المبارك، ونرجو من العلماء والباحثين أنهم قد عرفوا شخصية الإمام الفراهي، وتعرفوا على أعماله العلمية المطبوعة

¹ مقتبس مترجم من الخطاب الترحيبي الذي ألقاه الأستاذ اشتياق أحمد الظلي في الندوة الدولية حول سيرة وأعمال الإمام عبد الحميد الفراهي المنعقدة في شهر أكتوبر سنة 1991م في رحاب مدرسة الإصلاح بسرائ مير (أعظم كره، الهند)

العدد الخاص مجلة الهند

وغير المطبوعة، فالآن ندعوهم ليسيروا على تلك الخطّة التي وضعها الإمام
الفراهي لمشروعه الرائع للإصلاح الديني والفكري والعملي لمسلمي الهند خاصة
ولمسلمي العالم عامة.

د. أورك زيب الأعظمي